المرأة في رواية ساعات اغتصاب شهرزاد للروائية (سوسن البياتي) في ضوء السيميائية (دراسة في جمالية توظيف الضوء والظل)

أ.م.د نهى جعفر عوفي
جامعة واسط / كلية التربية للعلوم الإنسانية

المستخلص:

يتجلى موضوع المرأة في الأدب العربي بصور متنوعة وبأثر عميق ينبثق من إشكالات مكانة المرأة في المجتمع العربي بوصفه مجتمعاً ذكورياً بحتاً، فقد مثّلت مَصدر إلهام ثري، ومحورًا أساسا في أدبنا على مرّ العصور المتعاقبة، بدءاً من الجاهلية حتى العصر الحديث. فلم تقتصر تلك الصور على تقديم جانب واحد، بل قُدمت بأنماط مختلفة بالغة التعقيد، سواء أكانت شخصية رئيسة أم مهمشة في نتاج الشعراء والكتّاب، أو بوصفها صوتا مبدعا يسطّر الرؤى ويشارك في بناء المشهد الثقافي، وقد عبرت تلك الصور على اختلاف تشكيلها عن مسيرة المرأة في الأدبِ العربي عبر جملة من التغيرات الاجتماعية والثقافية، كانت قد عكست مكانتها وتقلبات صورتها عبر تغيرات المجتمع بوصفها مصدر إلهام وتصوير غني بالدلالات .

وقد تجلت صورة المرأة في رواية سوسن البياتي (ساعات اغتصاب شهرزاد) عبر صفحات الظلام التي خطّها التنظيم الدموي الكافر(داعش) الذي اجتاح العراق لتصبح المرأة أول ضحاياه من الجوانب جميعاً، وقد تفننت الكاتبة في توظيف تقنية الضوء والظل لتقديم تلك المشاهد التي هيمن عليها الظلام المادي والمعنوي وهي تصور محنة النساء الأيزديات في الموصل مع تنظيمات داعش المتأسلمة، وقد استعنا بالمنهج السيميائي لتتبع ذلك التوظيف لنضع الإصبع على الخيوط التي تصل بين التوظيف والدلالة لتقديم المشهد، بوصفه صرخة بوجه القهر الاجتماعي.

وقد عُدت تلك الرواية "ساعة اغتصاب شهرزاد" للكاتبة العراقية سوسن البياتي وثيقةً أدبيةً مهمة عكست جانباً مظلماً من واقع المرأة في المجتمعات الذكورية التي يسود فيها القهر الاجتماعي.

الكلمات المفتاحية: المرأة، رواية، ساعة اغتصاب شهرزاد، سوسن البياتي، الضوء والظل.

Abstract

The theme of women in Arabic literature manifests itself in diverse forms and with a profound impact stemming from the complexities of women's status in Arab society, which is considered a purely patriarchal society. Women have represented a rich source of inspiration and a central axis in our literature throughout successive eras, from the pre-Islamic era to the modern age. These portrayals have not been limited to presenting a single aspect, but have been presented in highly complex and varied styles, whether as a main or marginalized figure in the works of poets and writers, or as a creative voice that articulates visions and participates in building the cultural landscape. These images, in their diverse forms, have expressed the journey of women in Arabic literature through a series of social and cultural changes, reflecting their status and the fluctuations in their image through societal transformations, as a source of inspiration and a richly symbolic representation. The image of women in Sawsan Al-Bayati's novel, "The Hours of Scheherazade's Rape," is revealed through the dark pages

written by the bloody, infidel organization ISIS, which swept through Iraq, making women its first victims in every aspect. The author skillfully employs the technique of light and shadow to present these scenes, dominated by both physical and psychological darkness, depicting the ordeal of Yazidi women in Mosul at the hands of the Islamist ISIS. We utilized a semiotic approach to trace this function, pinpointing the threads connecting the use of light and shadow in presenting the scene as a cry against social oppression. This novel, "The Hours of Scheherazade's Rape," by the Iraqi writer Sawsan Al-Bayati, is considered an important literary document that reflects a dark aspect of women's reality in patriarchal societies where social oppression prevails.

التمهيد

١- مفهوم الشخصية السيميائية في الرواية:

إذا نظرنا إلى المعنى الدقيق الذي يُشكّله معنى سيميائية الشخصية ولاسيما إذا كان التناول لشخصية (المرأة) في الروايات التي عاينت آثار الهلاك والاضطهاد والاستلاب التي تتعرض له المرأة في ظل غياب المحددات وضياع الحقوق وتلاشي الهوية، فإننا نجد أنَّ سيميائية الشخصية تكشف عن الأبعاد النفسية والجسدية كافة التي يُعالجها كاتب الرواية، كما أنَّ ذلك يعكس التطلّع إلى مجموعة أوصاف الشخصية ووظائفها في علاقاتها، حيث يتم تقييم الشخصية من خلال دال لا متواصل، أي مجموعة متناثرة من الإشارات، لذلك تتوجه الحركة السيميائية لمعرفة مفهوم الشخصية "حيث يلتقي مفهوم الشخصية بمفهوم

العلامة اللغوية، فينظر إليها كمورفيم فارغ في الأصل، سيمتلئ تدريجياً كلما تقدمنا في قراءة النص" (حمداوي، ٢٠١١، ص. ٢٢٢).

لذلك إنَّ دراسة سيميائية الشخصية تتم بشكل أوضح عن طريق تحديد البعد الذي تظهر في ظلاله شكل الشخصية، لأنَّ البعد في الشخصية "كل سمة تتضمن فروقاً بين الأفراد، ويعني كل فرق من هذه الفروق اتجاهاً، ومفهوم بعد الشخصية مفهوم مجرّد بطبيعة الحال، فهو ببساطة تخطيط رمزي يساعدنا على فهم الشخصية" (هلال، ٢٠٠١، ص. ٥٧٣).

وعلى فرض أنَّ الشخصية علامة في التناول السيميائي، فإنَّ دراسة الشخصية من ناحية سيميائية يجعل الشخصية ذات بناء فاعل في تشكيل الرواية، "فالشخصية بجميع مظاهرها الواقعية والتخيلية استطاعت أن تعبّر عن متطلبات واحتياجات الإنسان العادي بأسلوب فني جمالي، إذ تمثّل البعد الدلالي للفضاء المكاني المتحرّك والمتفاعل معها" (الأشلم، ٢٠٠٦، ص. ٤٥٨)، كما أنَّ تقصّي ملامح الشخصية من الوجهة السيميائية ما يقوم على دراسة الشخصية من ناحية إشارية بما يتطلّب التوافق بين ما ترسمه صورة الدال في فعل الشخصية والمدلول كذلك؛ لأنَّ الشخصية "وحدة دلالية وهي تنمو على طول النص" (الأحمر، ٢٠١٠، ص. ٢١٨).

٢- مفهوم الضوء والظل:

يجسّد مفهوم الضوء والظل في المجال الفلسفي والنفسي ما يتضافر مع إسقاطات الشعور، حيث يمكن إنشاء مقاربة بين عمل الشعور واللاشعور في النفس الإنسانية متجسّدة في الأحلام، وبين الآلية التشكيلية للضوء والظل المتجسدة في العمل الفني، "فإذا عددنا العالم الخارجي مصدراً ضوئياً، فإنَّ الأنا الواعية تستمد ضوءها منه، وبقدر سطوع ضوئها وخفوته تشي بمدى تأثرنا بكل ما يبثّه العالم الخارجي في نفوسنا، ومن ثم تسقط الأنا ضوءها من العالم الخارجي ليغدو أشعة متجّهة نحو عقلنا الباطن الذي يستقبلها بدوره ويعكسها

ظلالاً لاشعورية جامحة" (فرويد، ٢٠٠٣، ص. ٢٤)، لذلك فقد ارتبط مفهوم الضوء والظل بالمستوى التفسيري لما يصدر عن الشعور في المناطق المضيئة والمظلمة أو المظللة، لأنَّ كل منها يتطابق مع مستوى من المستويات الشعورية التي تنفرد في شكل التفسير لهذه المفاهيم (الضوء، الظل).

ومن ناحية أخرى، فقد تمَّ النظر إلى الظل على أنه "ما يرمز إلى الجانب الآخر، أي إلى شقيقنا المظلم الذي يشكّل الجانب المرئي، اللا منفصل عن المجموع الكلي أنفسنا، ويُعد الظل صورة نمطية بدئية ما تزال تُحقّق ظهورها عند الشعوب البدائية في نطاق واسع للشخصيات" (جاكوبي، ١٩٩٣، ص. ٢١).

وقد تمَّ التوفيق في الناحية النفسية التي أولت اهتمام لدراسة العلاقة بين الضوء والظل، حيث توجّهت عناية علماء النفس نحو الموازنة بين الضوء (الأنا)، والظل (اللاشعور)، فإذا ازداد متوهّج الأنا (الضوء) انعدم وارتدَّ منعكساً إلى عقلنا الباطن ليتوارى في خفاياه، فيؤدي إلى تشكّل الأمراض النفسية العصابية التي لا يمكن علاجها إلا بالعودة إلى المراحل الأولى من حياة الإنسان للتعامل مع صفات الظل، ورفع هذه الصفات إلى الوعي) (ينظر: جاكوبي، ١٩٩٣، ص. ١٥٤).

وفي ضوء ذلك، فقد ناقش المفسّرون أهمية تواشج العلاقة بين الضوء والظل على المستوى الشعوري، حيث ناقش هؤلاء ما سُمّي بـ (الظل الشخصي) وكذلك (الظل الجمعي)، "فالصيغة الأولى هي شكل الظل الشخصي الذي يتضمّن في ذاته السمات الفنية للفرد التي لم يعشها منذ بداية حياته، والصيغة الثانية هي الظل الجمعي، وتنتمي هده الصيغة إلى رتبة الصور أو الأشكال الأخرى للاوعي الجمعي" (جاكوبي، ١٩٩٣، ص. ١٥٥)

المبحث الأول: صورة المرأة من خلال إسقاطات الضوء في رواية ساعات اغتصاب شهرزاد

تطالعنا الكاتبة عبر معطيات الضوء بكشفها الدقيق والمباشر عن مظاهر الاستلاب والتمييز، لأنَّ دراسة إسقاطات الضوء عبر تعرية مظاهر الاستلاب يعزّز أشكال المعاناة التي اختصرتها الكاتبة في شخصية (شهرزاد)، "فالاستلاب هو حالة انبهارية وانسحاقية تحت ظروف خارجة عن الإرادة، وهو انقطاع عن الانتماء إلى الذات" (علوش، ١٩٨٥، ص. ١١٣).

وما يسهم في هذا المجال دراسة الأشكال المختلفة الإسقاطات الضوء، ولاسيما أنَّ الكاتبة تعاين عبر البناء السردي توجيه الأثر السيميائي في تفسير صورة الشعب المدمر من كل شيء، حتى يشكّل الاغتصاب المظاهر المادية الكامنة كافة في النفي والسلب والسبي للنساء، وقد يكون الاغتصاب معنوياً، يعني اغتصاب كل مقومات الحياة والهوية، ومن ذلك التجسيد عبر إسقاط الضوء على تعرية الواقع الاستبدادي لشخصية المرأة (شهرزاد) ومما جاء في الرواية موضحاً لحالة الاستلاب النفسي: "من نافذة ضيقة في بنك الحياة المترع بالأحزان والآلام المكدّسة في سراديبه، أطلت شهرزاد، كي تصرف صكوك همومها اللامتناهية إلى (يوم يبعثون)، هي بين يدي زوج لا يعرف من المرأة غير أنها كائن مخلوق للعبودية، وبالتالي هي في نظره جسد أنثوي، يمارس عليه حركات ديناميكية لإفراغ شهوته اللا محدودة.. كل ذلك مقابل لقيمات تبقي ذلك الجسد على قيد الحياة" (البياتي، ٢٠٢٢، ص. ٢٨)

ومن جمالية إسقاط الضوء على ما يظهر فداحة الأشياء المحيطة ما جاء في نص الرواية: "بسط الجيش العراقي يده على المدينة واسترجعها من قبضة داعش، عاد بشار وأهله إلى الموصل، هاله منظر الخراب والدمار الذي حلّ في المدينة، اقشعر بدنه عندما شاهد الأنقاض تتحول إلى مقبرة كبيرة تضم رفات عائلات كاملة"(البياتي، ٢٠٢٢، ص. ١٤٤) ، فكما نلاحظ يرافق الإحباط ما يمكن أن يوفر عناصر الخلاص، ذلك أن تحرير المنطقة لم يوفر للشخصيات ارتياحها وسلامها الداخلي، لأن الدمار وهاجس الخوف والقلق من

الماضي والحاضر ما زال يحاصر الشخصية، فلا يمكن أن ترى أبعد من مشاهد الدمار والخراب في كل مكان.

إنَّ تحديد كشف الضوء لحالة القهر والاغتصاب الروحي للمرأة يرصد حالة مستشرية في المجتمعات، ولاسيما عندما يسود الفقر المدقع نتيجة الاضطرابات والحروب التي تتعرض لها البلاد، فيسود الاضطراب والظلم والخلط بين القيم والمعايير، وذلك كله يسهم في الكشف عن الحالة التي تتحدث عنها الكاتبة في تفسير المستوى الشعوري واللاشعوري لمعطيات الضوء الكاشف عن الحالات الاستبدادية تجاه الطرف الآخر، فالكاتبة تصوّر حالة الاستبداد للمرأة من قبل زوجها كما لو كان غريباً، لأنَّ الزواج هنا عبارة عن صفقة لا أكثر، وهذا كله يكشف عبر إسقاطات الضوء على حالة التهميش للمرأة بشكل خاص وفرض غياب الحرية لها، وضياع حقوقها واستقلاليتها في ضوء ذلك.

ومما يعمّق صورة الاستلاب والقهر ما جاء في خلق تمييز بين الذكر والأنثى على وفق اعتقادات محفوفة بطبيعة التفكير الجاهلة التي لا ترتقي إلى حد الإنصاف للمرأة في كل حقوقها، ومن ذلك ما تفسّره الكاتبة في نص الرواية: "ازدادت نقمة فوزي على فصيل النساء، وتساقطت حمم ثورة بركانه على رؤوس أطفاله أكثر، عندما صار لديه ست بنات مقابل ثلاثة أبناء فقط، من زوجتين اثنتين، الأولى أمم شهرزاد التي توفيت بعد ولادتها بفترة قصيرة" (البياتي، ٢٠٢٢، ص. ١٨).

وفي ظل ذلك تسعى الكاتبة عبر سيميائية الضوء أن تكشف عن علاقة الشخصية (المرأة) بالحدود المجتمعية "لأنَّ الرواية تعالج قضايا واقعية، وإذا كانت ماهية الإنسان متجذّرة بالمكان الذي يوجد فيه، وبهويته ومعتقداته إلى درجة أنه لا يمكن فصمها عن هذه الأشياء" (غيرتز، ٢٠٠٩، ص. ١٣٥)، بمعنى أنَّ الرواية تحاول خلالها الكاتبة أن تعطي كل مجال لتفسير شكل الاغتصاب بأشكاله كافة ، فالتمييز نوع من الاستلاب والاغتصاب، وكذلك تغييب شخصية المرأة نوع من الاغتصاب لحقوقها، وكل ما يمكن أن يشكّل تنامي هذه

الفكرة في الرواية، حيث تشير الكاتبة إلى أنَّ حالات السبي متكررة في كل هجوم تكفيري تقوم به (داعش) على المناطق، ومن ذلك التصوير الكاشف لذلك: "هكذا في باقي القرى الإيزيدية، اقتحم داعش المنازل، قتل الرجال والأطفال، قتل كبار السن بعد أن عذّبهم، حرق منازلهم وعذّب وسبى نسائهم، ثم ساقهن كالجواري، وباعهنَّ في سوق النخاسة" (البياتي، ٢٠٢٢، ص. ٥٥).

وفي ظل هذه المعاناة وفرض السيطرة على المرأة من كل النواحي سواء من الآخر التكفيري، أو من المجتمع المحيط بها ، نجد التماس المرأة لكل ما يمكن أن يكسبها ولو قليلاً مما يؤكد إحساسها بالانتماء ويحدد كيانها، ولاسيما أنَّ تحديد مظاهر العنف والاستلاب في الناحية الاجتماعية يساعد على فهم تطوّر سلوك المرأة في الراوية من خلال الكشف عن الملابسات الخارجية المشكّلة لاستلابها واغتصابها، وإذا كان المجتمع "مجموعة من العادات المتأصّلة في نفوس الأفراد لتلبية حاجات الجماعة ، وبعض هذه العادات آمرة، ولكن أغلبها تعبّر عن الطاعة والخضوع، وتمارس نوعاً من الضغط على ارادتنا وتجذبنا نحوها" (بدوي، ٢٠٠٠، ص. ١٠٦).

ومن ذلك الكشف عن حالة الاغتصاب للمرأة في الرواية ما جاء في وصف معاناة المرأة في الشخصيات المتعددة: "أمّا ليلى التي أمسكها الرجال بعد فشل محاولة هربها، وعادوا بها حيث كانوا يجمعون النسوة، فقد أوسعوها ضرباً هي والأخريات، ثم جمعوا كل النساء وأطفالهن من بيوتهن" (البياتي، ٢٠٢٢، ص. ٥٣).

وقد يظهر الضوء في الكشف عن تغير المفاهيم، أي أنها لم تعد تشير إلى ما كانت عليه، فكل شيء مرتبط بحجم الألم والقهر، فلا شيء يعطي طاقة الحياة" في هذا الزمن مهما تحصنت باللقاح الإنساني اللازم، فالفيروسات المجتمعية تتطور بشتى أساليب الفتك اللأخلاقية، كي تفقد الرحمة مناعتها مع معناها"(جاكوبي،،٣٩.١٩٩٣) يتلاشى التوصيف عبر مظاهر الضوء في الكشف عن تبدل المعايير، فإذا

كان اللقاح هو من يعطي المناعة وأساليب الوقاية، فإنه يتحول في مجتمع كهذا إلى ما يمثل فيروسات لا يمكن لأية مناعة مواجهتها.

لذلك نجد كل التفاتة في رصد الكاتبة لإسقاطات الضوء عبر التعبير عن حجم التهميش التي تعانيه المرأة، لأنَّ خضوع شخصية المرأة لأكثر من إرادة داخلية وخارجية هو ما يزيد من تراتب أوجاعها، فإن في خضوع الشخصية للإرادة المستلبة المفروضة نوعاً من الانتحار بشكله المجازي وهو ما يتنامى مع الفعل الحر الحقيقي "الذي ينبثق من صميم الذات، ولا نستطيع الوصول إلى هذا المدى حتى نطرح من دواخلنا الهواجس عن طريق التخلّص من كل ما يؤرّق النفس" (غدنز، د. ت، ص. ٨٣).

ومن التصعيد لحالة القهر والاغتصاب ما تتعرّض له شخصية (شهرزاد)، ومن ذلك في الرواية: "أمّا شهرزاد المسكينة، فقد مكثت في دارها، حيث كانت حية ميتة، يأكلها العوز والغربة من جهة، والخوف والرعب من عناصر التنظيم من جهة أخرى، إذ كانوا يقتحمون دارها في كل لحظة، يهدّدونها لأنها كانت زوجة منتسب لدى الدولة العراقية، والتي حاربت أفراد التنظيم" (البياتي، ٢٠٢٢، ص. ٧٦)

إنَّ هذا النوع من التصوير يعطي سيميائية الدلالة عبر تقنية الوصف بما يعمّق في صورة الضوء الكاشفة عن ملابسات الانتهاك للحرية التي تعانيها المرأة على مسار الرواية، كما أنَّ لإسقاطات الضوء ما يسهم في تعزيز مفهوم الوعي الذاتي للمرأة، "فوعي الذات هو نمط من الاتجاه عند الشخصية يتم بمعرفة عميقة بالأنا، والآخرين انطلاقاً من وجود علاقة بين معرفة الأنا والآخرين تتم بصورة تكيف متبادل بين الشخص والجماعة أو الشخص والآخرين" (حجازي، ٢٠٠١، ص. ٢٠).

ومن ذلك ما يظهر في تسليط الضوء في البحث عن التعويض النفسي الذي لا يمكن أن يتحقق كما يظهر في نص الرواية، لأنَّ كل مشهد مأساوي أكثر من السابق ، ومن تعالي الانكشاف عبر الضوء لمزيد من الاغتصاب والقهر، ومن ذلك التصوير المأساوي: "خطف الرجل الثاني الطفلة ... تم قام بنهشها كالوحش

الكاسر، وهمَّ باغتصابها وهي تتلوى وتصرخ، مغلولة بالأصفاد المعلّقة بالسرير تنادي باسم ابنتها (نور) وهي تمدّ يدها صوبها، بينما الطفلة تصرخ من حرارة الشمس، و من سعير قضبان الحديد الملتصق بجسدها .. الأم تصرخ، والطفلة تصرخ، والإنسانية تصرخ ترثي فقيدها الإنصاف المذبوح، بينما ترفع الوحشية كأس الانتصار تحتفل بموت الرحمة وانتهائها ثم اختفائها من عالم الوجود" (البياتي، ٢٠٢٢، ص. ٩٣)، إنَّ هذه اللوحة المشهدية تلخّص العلامات والإشارات كافة التي يمكن أن تعانيها المرأة كما قدمتها الكاتبة في أقبح وأقذر ما يمكن أن تمارسه الوحشية في مقابل الرحمة والإنصاف.

ومن جمالية التشكيل لسيمائية الضوء ماجاء في تشكيلات متعددة في مشاهد الرواية، ومن ذلك" إنه موسم جني المحاصيل الصيفية، في قرية من قرى ربيعة العربية القريبة من سنجار، الشمس الصارخة في كبد السماء لم تنمع الطيور من الإنصات لغناء الفتيات الأيزيديات العاملات في الحقول، فمرت النسائم بفضول بين جدائل الصبايا الطريات"(البياتي ، ٢٠٢٢،ص ٤١)

تظهر المفارقة في تشكيل إسقاطات الضوء، لأن الشمس لا تبعث على ما يفسر جمالية الانكشاف والضوء، بل إنّ كل ما يظهر في نواحي المدينة من سطوع الشمس وهبوب الهواء يعدّ من الأشياء التي تحمل الشخصية على الشعور المتثاقل بالهم، لأن المعاناة تزيد من خلال تجدد الحياة وتقلب الأيام التي تشهد على مآسي الشخصيات التي تعيش واقعية الحدث، لأن جيوش الظلام تحجب نور الشمس عن الشعب المقهور المفروض عليه سياسة التهميش.

المبحث الثاني: صورة المرأة من خلال إسقاطات الظل في رواية ساعات اغتصاب شهرزاد

إنَّ لإسقاطات الظل ما لا يقع في التضاد من إسقاطات الضوء، وإنما يُعنى بدراسة امتداد أثر الضوء من خلال التماس ظلال هذا الضوء وقياس مداه الذي يمكن أن يصل إليه خلال ذلك، و هذا ما يقتضي في بنية الرواية البحث عن كافة المؤشرات التي تفسّر معنى هذه الإسقاطات، ولاسيما ما يتبع للمعنى أو الفكرة الأساس التي بنيت عليها الرواية في عرضها الإرادة المغتصة في مقابل صراعها مع الإرادة الغاشمة الفارضة، بمعنى إنَّ للظل مع تقاطع مع تبعات الضوء فيما يتركه من مؤثرات تابعة للضوء، ذلك أنَّ صوت المرأة جاء مقموعاً منهكاً بآفات متعددة ، أي تمكّن الصوت الأنثوي الكشف عن بيئة مليئة بالتهميش والصراع الذي خلّفته آثار الحرب على العراق، ومن تشكيل الظل لصورة المرأة المعذّبة ما جاء في نص الرواية: "هناك، حيث هي واقفة ملتصقة بالحائط، حدثت تواً جريمتان في الغرفة الأولى وصلت المرأة الأيزيدية (دلسوز) هي وطفلتها الرضيعة، لم تسكت الطفلة من شدة الجوع والعطش، قنينة حليبها فارغة ملطخة بأوساخ وأتربة، الطفلة تتلوى وتصرخ، رموها في الغرفة وأغلقوا الباب، بكت الأم وضربت الباب بقوة علّها تلتمس لطفلتها طعاماً أو جرعة ماء" (البياتي، ٢٠٢٢، ص. ٩٢).

إنَّ تهميش العنصر الأنثوي من خلال ممارسات الحقد التكفيري تزيد من حالة الاغتصاب التي تتعرّض له المرأة في زمن الحرب التي طالت العراق، فيشكّل إسقاطات الظل ما يترتب على إسقاطات الضوء، لأنَّ هناك حالات مكشوفة وأخرى غير مرئية تعيشها الشخصيات في انعزال عن المحيط والذي يزيد سوءها هو طمس كل ما يحفظ كرامة المرأة وكيانها ، كما تتمحور إسقاطات الظل في محاولة المرأة المضطهدة في الحصول على الرأفة والنجاة من قلوب وحشية لا تعرف الرحمة، ومن ذلك التصاعد السردي ما جاء في ذلك: "أرجوكم اتركوني، لا دخل لي بأي شيء، أهلي زوجوني للشرطي كي يتخلصوا من لقمتي، أرجوكم

اتركوني لأجل أطفالي. قلنالك سنأخذك أنت وأولادك، اغلقي فمك واركبي المركبة الآن" (البياتي، ٢٠٢٢، ص. ٩١)

إنَّ بحث المرأة عن النجاة في طريق شائك موحش يفسّر مدى حاجتها لما يعينها على امتلاك أقل مقومات الحياة، لأنَّ الاغتصاب قد رسم حياتها ابتداءً من محيطها الاجتماعي وصولاً إلى ما وقعت به في أيدي هؤلاء السفّاحين وقد يبلغ إسقاط الضوء على الظل تبعات الإشارة إلى دوافع الاستلاب وتعزيز الاغتصاب في المجتمع العراقي أثناء ويلات الحرب، ومن ذلك ما جاء في الرواية من خلال حوار الأطراف التي تتشاور حول شأن المرأة السبية: "ما رأيك؟ هل تضع هذه الجارية هنا؟ أم في مبنى آخر؟ أم نرسلها مع جواري الشام؟ وماذا تأمر أيها الأمير بشأن أولادها؟ نظر أبو جهنية إلى المرأة ملياً وقال: هذه ليست ايزيدية كافرة، القدر جعلها تتزوج بشرطي ضال، يبدو أنها تنحدر من عائلة ذات حسب ونسب عريق، ثم إنها امرأة ولود، ألا ترون أبناءها الذكور؟ هذه المرأة ستجلب لي مخولاً أشداء، أقاتل بهم أعداء دولتنا، وسأرعى أولادها هؤلاء أيضاً، سيكونون من خيرة رجالنا الأبطال ضد الكفر وأهله" (البياتي، ٢٠٢٢، ص. ١٠٠)، تتطابق دلالة الظل في الكشف عن إسقاطات الضوء والمسكوت عنه ، حيث تركّز الكاتبة على كل وصف يمكن أن يعكس وحشية واقع المرأة اليزيدية، إلا أنها تقدم استثناء لهذه المرأة التي يعتقد لديهم أنها ليست كافرة، وستتم ترقيتها، فكل الخيارات الموضوعة من حال شيء إلى ما هو أسوأ وأكثر تقلاً، ومن ذلك ما يظهر في التصاعد النفسي لحالة الاغتراب والقهر النفسي، "فالاغتراب هو شعور الفرد بأنه مغترب في مجتمعه نتيجة تعرضه للتهميش والتجاهل ومن مظاهره عدم الشعور بالانتماء" (بركات، ١٩٩٨، ص. ١٠٦).

ومن إسقاطات الظل ما يظهر في صوت شهرزاد المخنوق الذي يلخص كل ما يمكن أن يعكس الكذب والزيف والادعاء والتخفي وراء شعارات واهمة" أنا عراقية، أنا الضحية لست بالجلاد، لست داعشية، الأيام

جلدتني بما يكفي، بأي زمان يجرم البريء، ويبرأ المجرم، جارت علي الأيام كثيراً، عذبت، سبيت، أُسرت، ضُربت، زُوجت غصباً مرتين، لست أنا من جاء بداعش"(البياتي ، ٢٠٢٢ ، ص ١٥٩) يختصر هذا المشهد انقلاب المعايير والقيم في زمن تفشت فيه انحلال الأخلاقيات، ولا سيما ما يمكن أن يظهر في زمن سيطرة الجاهل، المتخلف على الشعب بأكمله، فتظر شهرزاد تلك الشخصية التي لخصت بقولها عبر إسقاطات الظل كل ما يمكن أن تعانيه المرأة في ظل سيطر قوى التكفير والإرهاب.

ومن ذلك التجسيد لإسقاطات الظل في تكثيف الاغتراب والشعور بالقلق الدائم ما تعيشه المرأة على مسار الرواية "ازداد خوف شهرزاد من هول ما رأت من مناظر، هواجسها تنذرها بمعركة قدرية غير متكافئة، معلوم فيها الغلبة لمن، لا تدري ماذا سترى عيناها بعد قليل، ماذا ينتظرها هي الأخرى، إنها تتوسل إلى الله كي يمدّها العون، ويخلّصها من محنتها، كانت لحظات قاتلة" (البياتي، ٢٠٢٢، ص. ٩٨)، تُعد شخصية (شهرزاد) المحرك الأساسي للكشف عبر إسقاطات الظل عن كل المخفي الذي تخفيه أدوات الإجرام وتجسيد الاغتصاب بكافة أشكاله.

ومن المفارقة التي توفرها سيمائية الظل ما جاء في النص الآتي" كانت الساعة التاسعة صباحاً، الأطفال يلعبون في الرواق، مجموعة من الصبية يلعبون الكرة، أما الفتيات فكن يلعبن لعبة الحجر والقفز على رسومات وخطوط خططنها على الرصيف...بينما كان بشار يتابع ما يدث وكأنه يألف المكان الذي تغير كثيراً بسبب الهدم، فيتوهم أحياناً أنه يألف زاوية ما...اقتربت الكاميرا من جثة أحدهم"(البياتي ، ٢٠٢٢ ، ص ١٤٣)يسهم الأثر المفارقاتي في رسم صورة الخذلان التي تتعرض كل الشخصيات، لأن الحياة محفوفة بالمخاطر والمهالك، ولا يمكن الحصول على حياة وردية في جو كهذا، فترتسم صورة الظل في إيقاظ الشخصية من غفلتها لرؤيتها مشاهد الدم والجثث في كل مكان.

كما يتجلّى إسقاط الظل في الرواية في تجسيد مفهوم الاستلاب التام دون قدرة المرأة على تعدد أسمائها أن تحاول فعل ما يغيّر سخرية القدر التي ارتسمت لها، ومن تناول المسكوت عنه ما حق ابداء الرأي والكشف عمّا تشعر به المرأة ما دار في الحوار الآتي: "إنها الليلة الأولى معه، كل شيء مختلف، رجل غريب، من جنسية عربية أخرى، يصول ويجول في بيتها، يخاطبها باللغة العربية الفصحى.

- ستكونون جنود الله الأبطال وسيفه البتار، سأجعلكم من قيادات ورجال التنظيم الشرسين

التف إليها:

- ستفخرين بهم يا شهرزاد، سترين" (البياتي، ٢٠٢٢، ص. ١٠٢)

إنَّ قدرة الروائية على رصد كافة مظاهر الإجرام بحق المرأة اليزيدية وسواها وفق إسقاطات الظل ما يتعلق بإسقاطات الضوء، لأنها أساساً صادرة عنه ومتعلقة بخيوطه ، بما يظهر كافة الانفعالات التي يمكن أن تعيشها المرأة في أقسى مشاهد الاغتصاب، لأنَّ الكاتبة قد كوّنت مسبقاً كافة الرؤى والتصوّرات لما سيحل بهذه الشخصيات، لأنها واقعية الحكي والسرد، أي أنَّ شخصية المرأة (شهرزاد) هي علامة سيميائية تختصر كل الآلام والآهات التي مرت بها المرأة اليزيدية في تلك المرحلة من الحرب على العراق، ومن النواحي التي ركّزت عليها الكاتبة في بيان ظلال المسألة المرتبطة بالانتهاك قضية الترهيب الدائم والخوف من المكبوت، ومن ذلك ما يظهر في تعالي صراع المرأة مع ذاتها، ومن ذلك ما جاء في نص الرواية تلخّصه الكاتبة في إظهار كافة الانفعالات والمخاوف التي مرّت بها شهرزاد: "شهدت فظائع التنظيم ومجازره بنظرة واحدة ارتشفت الألم والخوف والذل والفزع من كأس واحدة، ذاقت طعم الريبة والقلق والفزع من نفس الرغيف، لم تمهلها الأيام هدنة كي تلتقط أنفاسها وترتب أحداثها المؤلمة في رفّ ذاكرتها بإنصاف، هي تشاهد أناساً من جنسيات عربية وغربية مختلفة انطوت تحت لواء هذا التنظيم" (البياتي، ٢٠٢٢، ص. ١٠٤)

وهذا ما يكشف عن الخضوع والاستسلام الذي لا يجعل المرأة كما تقدّمها الكاتبة قادرة على التماس ما يوفّر لها النجاة والخلاص، فكل شيء يُهدّد حريتها وينهش كرامتها، ومن سوداوية إسقاطات الظل خلق حالة الاعتيادية في شخصية (شهرزاد) في تقبّل سياسة الأمر الواقع "كعادتها في المطبخ تعدُّ الطعام لأطفالها ولأبي جهينة، الذي بدا نهماً وشرهاً جداً، يجيد فن الابتلاع والتهام كل أصناف الطعام كماً ونوعاً بسرعة ماراثونية قياسية" (البياتي، ٢٠٢٢، ص. ١٠٥)

يعكس المكان المغلق (المطبخ) تكثيف القهر من جهة والشعور بحالة التسليم القسري من ناحية أخرى، أي أنَّ المكان يظهر بما يضيّق على المرأة في شعورها بالقهر في تزايد مستمر، فالمكان هنا وسيلة حماية لها ولأطفالها ووسيلة مكثفة لمزيد من القهر والاستلاب والاغتصاب دون القدرة على فعل شيء مغاير، ولاسيما أنَّ المكان فيه "إكساب سمات الشخصية الحية، حيث يتم تحديد أدرار الشخصية بمدى عمق ارتباطها بالمكان" (جنداري، ٢٠١٢، ص. ٢٠٤)، المعنى من ذلك إنَّ لدراسة صور المرأة في هذه الرواية ما يجعل من إسقاطات الضوء والظل تلك القدرة السيميائية لتناول كل معطى إشاري يسهم في تأكيد عمليات القتل والإجرام، وتصوير الفئة الغالبة فيما مارسته قوات التنظيم الإجرامية بحق الفئة المضطهدة المغلوبة، فجاءت هذه الإسقاطات في عرض صورة السواد والبياض ، أو صورة القوة والضعف بما يتناسب مع الحالة الرؤيوية التي تهدف إليها الكاتبة في رصد حقبة من الزمن عاشه العراق في ويلات التكفير و الإجرام.

ومن إسقاطات الظل ما يظهر في العتمة التي خيمت على الشخصيات في الرواية" كانت المنظمات في بادئ الأمر تجلب بعض المستلزمات والمؤن للمخيم بين فترة وأخرى، من جانبها كانت الحكومة توفر بعض المساعدات الخجولة أحياناً، شيئاً فشيئاً بدأت المساعدات تشح وتقل حتى كادت تختفي"(البياتي ، ٢٠٢٢ ،ص ١٤٧)، يظهر المكان الآمن(المخيمات) ما يعكس خلاف ما يمكن النظر إليه، لأن المكان الذي كان يوفر

سبباً للأمان وتلقي ما يسد رمق الحياة بات وسيلة لا تجدي نفعاً، لأن كل شيء أصبح فاراغاً نتيجة سوء الأوضاع السياسية والاجتماعية والأمنية.

خاتمة:

- إنّ إسقاطات الضوء والظل لدراسة صورة المرأة في نص البياتي جاء متناسباً مع الفهم السيميائي لأبعاد الشخصية كافة في كل ما تتعرض له ويظهر أثره المباشر عبر حركة السرد.
- إنّ الرواية كشفت عن سحق كامل للمرأة في تلك الحقبة المظلمة بوصفها صورة واقعية مطابقة لما مرت به تلك الفئة من النساء أثناء الحرب على العراق، وممارسة الحقد التكفيري أنواع الاستلاب والقهر كافةمتمثلة في صورة أقبح(الاغتصاب) بمعانيه المعنوية والمادية.
- تكشف الرواية عبر سيمائية الضوء والظل عن أشكال المعاناة التي تعرّضت لها المرأة بشكل خاص من قبل الأطراف الداخلية والقوى الخارجية المفروضة عليها بسياسة التكفير والتهميش التعسفي.
- وظفت الروائية ثنائية الضوء والظل بطريقة مادية تتمثل بالجوع والترحيل ومعنوية بالظلم والاغتصاب والخوف.

المصادر والمراجع:

١. جنداري، إبراهيم. (٢٠١٢). الفضاء الروائي في أدب جبرا جبرا. دار تموز للطباعة والنشر. ط١.

٢. غدنز، انتوني. (د.ت). علم الاجتماع. ترجمة: فايز الصباغ.

٣. حمداوي، جميل. (٢٠١١). مستجدات النقد الروائي. ط١. الألوكة.

٤. الأشلم، حسن. (٢٠٠٦). الشخصية الروائية عند خليفة مصطفى. ليبيا.

٥. بركات، حليم. (١٩٩٨). غربة المثقف العربي. مجلة المستقبل العربي. عدد ٢.

٦. حجازي، سعيد. (٢٠٠١). قاموس مصطلحات النقد الأدبي. القاهرة: دار الآفاق.

٧. علوش، سعيد. (١٩٨٥). معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة. بيروت: دار الكتاب اللبناني. ط١.

٨. البياتي، سوسن. (٢٠٢٢). رواية ساعات اغتصاب شهرزاد. العراق: دار الفرات للثقافة والإعلام.

٩. فرويد، سيجموند. (د.ت). تفسير الأحلام. ترجمة: مصطفى صفوان. مراجعة: مصطفى زيور. لبنان: المركز العربي للدراسات النفسية التحليلية. دار الفارابي. ط١.

١٠. الأحمر، فيصل. (٢٠١٠). معجم السيميائيات. الجزائر: منشورات الاختلاف. الدار العربية.

١١. غيرتز، كليفورد. (٢٠٠٩). تأويل الثقافات. ترجمة: محمد بدوي. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

١٢. بدوي، محمد. (٢٠٠٠). الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع. دار المعرفة الجامعية.

١٣. هلال، محمد. (٢٠٠١). النقد الأدبي الحديث. القاهرة: مكتبة نهضة مصر.

١٤. جاكوبي، يولاند. (١٩٩٣). علم النفس اليونغي. ترجمة: ندرة اليازجي. دار الأهالي للطباعة. ط١.

Sources and references:

1. Jandari, I. (2012). The Narrative Space in the Literature of Jabra Jabra. Tammuz Publishing House. 1st ed.

2. Giddens, A. (n.d.). Sociology. Translated by: Fayez Al-Sabbagh.

3. Hamdawi, J. (2011). Developments in Novel Criticism. 1st ed. Al-Aluka.

4. Al-Ashlam, H. (2006). The Fictional Character in the Works of Khalifa Mustafa. Libya.

5. Barakat, H. (1998). The Alienation of the Arab Intellectual. Al-Mustaqbal Al-Arabi Magazine. Issue 2.

6. Hijazi, S. (2001). Dictionary of Literary Criticism Terms. Cairo: Dar Al-Afaq.

7. Alloush, S. (1985). Dictionary of Contemporary Literary Terms. Beirut: Dar Al-Kitab Al-Lubnani. 1st ed.

8. Al-Bayati, S. (2022). The Novel: The Hours of Scheherazade's Rape. Iraq: Dar Al-Furat for Culture and Media.

9. Freud, S. (n.d.). The Interpretation of Dreams. Translated by Mustafa Safwan. Reviewed by Mustafa Ziwar. Lebanon: The Arab Center for Psychoanalytic Studies. Dar Al-Farabi. 1st ed.

10. Al-Ahmar, F. (2010). A Dictionary of Semiotics. Algeria: Al-Ikhtilaf Publications. The Arab House.

11. Geertz, C. (2009). The Interpretation of Cultures. Translated by Muhammad Badawi. Beirut: Center for Arab Unity Studies.

12. Badawi, M. (2000). Ethics Between Philosophy and Sociology. University Knowledge House.

13. Hilal, M. (2001). Modern Literary Criticism. Cairo: Nahdet Misr Library.

14. Jacobi, Y. (1993). Jungian Psychology. Translated by Nadra Al-Yaziji. Al-Ahali Printing House. 1st ed.